الجهاد في شعر عصر الرسالة

د. أيهم عباس القيسي
كلية الآداب / جامعة بغداد

ان طبيعة الحياة القاسية التي عاشها العربي في صحرائه الشاسعة ، وبيئته المجدبة بما أمتازت به من شحة في الموارد ، وجدب في وسائل أدامة الحياة وأستمرارها ، فرضت عليه أن يكون شجاعاً قوياً ليتمكن من مواجهة ظروف حياته الصعبة ، حتى أصبحت الشجاعة عنواناً بارزاً لحياتهم ، وغدت الفروسية ظاهرة مميزة طبعت نظام معيشتهم ، (فصار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية يرجعون اليها متى دعاهم داعٍ أو أستفزهم صارخ)[١] .

ولعل تأمل الحياة التي عاشها العربي في بيئته البدوية ، ذات الطبيعة الصحراوية يساعدنا في فهم الأسباب التي جعلت حالة الحرب ظاهرة شبه مستمرة في حياتهم . فالصحراء بميدانها الفسيح ورمالها الممتدة كانت منطلقاً واسعاً ، وميداناً فسيحاً لقيام الحرب . وهي في الوقت نفسه وهبت العربي حب الأنطلاق فعاشت الحرية في دمه وقدسها ، وجعلها مثلاً عالياً من مثله ، وتقليداً محترماً من تقاليده ، فهو يأبى العبودية ولا يرضى بها من أية جهة كانت ، ويتمرد على الهوان ، ولا يخضع للمذلة ، ويفضل الموت وهو يقتل تحت صليل السيوف ، من أن يعيش عبداً ذليلاً في ظل نعيم وافر[٢] .

فعاشت قيم النخوة والشهامة ، ومعاني الجرأة والأقدام خالدة في وجدانه ، حية في ضميره بعد أن أدرك انه لا قيمة للحياة دون مبادئ يعتز بها الانسان ، ويرتضي التضحية دونها .

ولم تكن مظاهر الصراع الذي كانت تؤججه الخلافات بين أبنائها سوى جانب واحد من جوانب أستمرار ظاهرة الحرب في حياتهم . (فقد ظلت الجزيرة محط أطماع دولتين متجاورتين قويتين هما الأمبراطورية الفارسية والامبراطورية

الرومية لهيمنتها على طرق تجارتهما الى الهند والحبشة ، فضلاً عن أن الجزيرة وأطرافها كانت هدفاً بذاتها تبحث كل من الإمبراطوريتين فيها عن مناطق نفوذ تحاصر غريمتها من خلالها مستفيدة من الموقع الجغرافي والقدرات البشرية والاقتصادية للجزيرة وما يليها من سواد العراق والشام) (٣) .

ولم يكن البحث عن مظاهر الخصب السبب الوحيد الذي كان يدفع العرب لخوض حروبهم ، وأنما كان الإيمان بالقيم النبيلة يمثل سبباً آخر لخوض الحرب ، فكانوا يبذلون كل ما في وسعهم دفاعاً عن العرض ، وحماية للجار وأغاثة للملهوف أو آخذاً بالثأر .

والعربي حين يخوض غمار الحرب ، ويضطر الى ركوبها ، فلأنه لا يجد وسيلة لدفعها عن نفسه لاسيما بعد أن وجد نفسه يتعرض للتحدي ويقف أمام خيارين لا ثالث لهما ، أما الحياة الحرة الكريمة أو الخضوع لإرادة القوى الباغية التي كانت تسعى لاستغلاله والسيطرة عليه ، واستثمار ثروته وجهوده ، وهذا ما كان يدفعه الى ان يظل متوثباً ومتحفزاً ، وهذا ما كان يحمله أيضاً على أن يظل محتفظاً بسلاحه وكل الأسباب التي تحقق له الانتصار (٤) .

وكان بزوغ فجر الرسالة المحمدية إيذاناً ببداية مرحلة التصحيح الشامل لمسير الإنسانية بعد أن ابتعدت عن طريق الحق والهداية ، وانحرفت عن مسار التوحيد والإقرار بوحدانية الله . ولم يكن من اليسير على الإسلام ان ينساب هادئاً متدفقاً الى أعماق النفوس التي أعماها الشرك وأستبد بها الجحود عن أدراك حقيقة الوجود الأزلية .

وكانت مهمة تحرير الإنسان من وثنية التفكير ، واجتثاث رواسب الشرك ، هي مهمة في غاية الدقة والأهمية ، لصلتها بعملية صلاح الانسان وهدايته ، لأنه مادة الاسلام ، وعليه تقع مسؤولية حمل المبادئ ، والدعوة اليها ، بعد أن أنزلها الله تعالى رحمة وهداية للعالمين ، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى : **[وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين]** (٥) . فالخير والرحمة هو جوهرها ، غير أنه لم يكن من اليسير على النفوس الجاحدة ، والقلوب المريضة أن تهتدي الى طريق الحق ،

وكانوا كلما سمعوا صوت الحق وضعوا أصابعهم في آذانهم صدوداً وأعراضاً عن الاستجابة لداعي الهداية . وبدلاً من أن يرعوي المشركون صعّدوا من عدوانيتهم تجاه الرسول الكريم والمسلمين ، فحاصروهم وأضطهدوهم وعذبوهم ، لا لشيء أرتكبوه الا لأنهم قالوا الله ربُنا .

وتحدثنا الاخبار عن تعذيب العديد من المسلمين بالضرب والجوع والعطش. فبلال بن رباح مولى أبي بكر ذاق أقسى أنواع العقاب وأشده على يد أمية بن خلف ليصرفه عن عبادة الله تعالى[٦] . (وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه ، وكانوا أهل بيت اسلام إذا حميت الظهيرة ، يعذبونهم برمضاء مكة فيمر بهم رسول الله (ﷺ) ، فيقول : صبراً آل ياسر موعدكم الجنة)[٧].

وكان الرسول الأمين نموذجاً متميزاً في ميدان الصبر والتحمل ، لم يضعف أمام قوة قريش ولم يتردد أزاء جبروتها ، بل ظل صُلباً قوياً صامداً ، رسم بأصراره صورة المؤمن الحقيقي الذي غمر الإيمان نفسه فأضاء جوانبها وبدد مخاوفها . وكانت عبارات الأصرار التي واجه بها قريشاً ، وهو يرد على مغرياتها ترسم صورة المواصلة ، وتفصح عن حقيقة الموقف النبيل ، وهو يجابه قريشاً بقوة إيمانه (يا عماه ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته) [٨] .

وبعد أن طورت قريش وحلفاؤها من اليهود صيغ العدوان ضد المسلمين وأصبحت الرسالة والمسلمون في وضع يستهدفهما ، كان لابد من تغيير سياسة المسالمة التي أنتهجها الاسلام في البدء ، وظهرت جلياً أهمية الدفاع عن النفس ، والذود عن حرية العقيدة ، فجاء التنزيل واضحاً ببداية مرحلة المواجهة مع قوى الشرك في قوله تعالى : [**أذنَ للذين يُقاتلون بأنهم ظُلموا وإنّ الله على نصرهم لقدير . الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حقّ إلا أن يقولوا ربّنا الله**] [٩] . فكان الإذن بقتال المشركين والتصدي لهم تحولاً جديداً في مسيرة الاسلام . وقد أكد القرآن الكريم بواعث الجهاد وأسبابه وما ينتظر المجاهدين من أجر ورحمة ،

يقول تعالى : **[إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فـــي ســـبيل الله أولئــك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم]** (١٠) .

وبين الله عزوجل فضل المجاهدين ومكانتهم التي وعدهم بها ، فقال تعالى: **[والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا أولئك هـم المؤمنون حقاً لهم مغفرةٌ ورزق كريم]** (١١) . أما ثواب المجاهدين وما أعـــده الله تعالى لهم من جزاء ومكانة فقد ذكرها الله عزّوجل في قوله تعالى : **[والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظمُ درجة عند الله وأولئــك هم الفائزون]** (١٢) . فتحول الجهاد الى عقيدة راسخة أستقرت في ضمائر المسلمين ونفوسهم حتى أضحت الدنيا مجازاً للآخرة والآخرة ثواباً للدنيا ، فحرصوا علـــى الموت أكثر من حرصهم على الحياة ، طالما أرتبط ذلك التوجه بهدف ديني نبيـل لاسيما أنهم مؤمنون بأن كل شيء قد قدّر تقديراً .

وكان الرسول الكريم نموذجاً فريداً في تجسيد شخصية المجـاهد المؤمـن الذي لم تهزه الأحداث أو تضعف ايمانه الأزمات ، بل كان قائداً باسلاً بكـــل مـا تعنيه دلالة القيادة من الجرأة والأقدام والصمود والصبر ، والثقة المطلقة بحتميـة النصر ، لأن المبادئ التي حملها الرسول (ﷺ) رسالة وهبته صلابة الإيمان وقوة الإرادة ، فسجّل اول نصر له عندما أنتصر على جموح النفـس وطوّعـها علـى تحمل المشاق . فعن أبي هريرة (ﷺ) قال : (خرج رسول الله (ﷺ) من الدنيـا ، ولم يشبع من خبز الشعير) (١٣). وكان يأتي على آل محمد الشـــهر والشـهران لا يوقد في بيت من بيوته نار ، وكان قوتهم التمر والماء ، وكان رســـول الله (ﷺ) يعصب على بطنه الحجر من الجوع) (١٤) .

ولم يكن ميدان المجاهدة مقتصراً على ميدان التحمل والصبر ، بل تعـــداه الى بذل كل ما في الوسع والطاقة بالقتال في سبيل الله عزّوجل بـــالنفس والمـال واللسان وغير ذلك ، مما يتصل بالدعوة الى الدين والدفاع عنه . فالأسلام فـرض الجهاد لتحقيق هدف عظيم إلا وهو نشر العقيدة ، فأصبح العربي يحـارب دفاعـاً عن العقيدة ، وذباً عن شريعتها وحماية لحياضها وأوطانها ، فهو قتـال لمبـدأ لا

لهوى ولا لثأر ، وهو قتال لله لا للنفس ومصالحها ، فلا عدوان فيه ، ولا ظلم ، يقول سبحانه وتعالى : [وقاتلوا في سبيل الله الذين يُقاتِلونكم ولا تعتدوا إنَّ الله لا يحبُّ المعتدين] (١٥) . فالغاية الأساسية في الفكر الإسلامي من الجهاد هي كفالة حرية العقيدة ، والدفاع عن حرية انتشارها .

وقد كانت معارك الإسلام الخالدة في عصر صدر الرسالة وما تلاها من حروب تحرير وفتوحات استهدفت تخليص الإنسان وتحرير أرادته من سلطان القوى الغاشمة ، لاسيما بعد أن اقترنت تلك المعارك بعنصر جديد هو عنصر العقيدة التي كانت تأخذ بقلوب المجاهدين وتشد على سواعد المقاتلين .

ولاشك أن أحداثاً كبيرة مثل الأحداث التي خاضتها جحافل الإيمان ، وهي تتصدى لنوازع الشرك والضلالة ، قد شكلت مادة غنية استمد منها الشعراء المشاعر والأحاسيس التي تتحول الى أناشيد حماسية تمنح المقاتلين السائرين في درب النور والإيمان معاني الأقتدار والقوة ، وتثير كل أسباب التضحية والفداء لإعادة الحياة الكريمة اليهم .

لقد رافق الشعر أغلب المعارك التي خاضها المجاهدون داخل الجزيرة وخارجها ، فكان ينبض بروح القوة والثبات ليعزز في نفوس المسلمين عوامل الأندفاع والتضحية ، وكان الشعر بموجب هذه المهمة وطبيعة الدور الذي أنيط به في مستوى القدرة على بلورة الأفكار وتجسيد المعاني التي حملها الإسلام للعرب ، والتي جعلت المجاهدين قادرين على التعبير عن قيمة أنتصار الحق ورسوخ قيم الفضيلة من خلال ترسيخه قيم الثبات على المبدأ ، وما كان يثيره في نفوس المسلمين من روح الأقدام واستطابة الموت التزاماً بمبدأ الجهاد وتمسكاً بحب الشهادة في سبيل العقيدة .

ومثل ما كان الشعر أميناً في تصوير ملاحم الاسلام وانتصاراته الخالدة ، فقد كان صادقاً في تجسيد القيمة التي أستقرت للجهاد في نفوس المؤمنين ، بعد أن ملأت هذه الدعوة المقدسة قلوب المسلمين إيماناً وعقيدة ، فأندفعوا قوافل هادرة ، وجموع حاشدة تمتثل لأمر الله ، وتستجيب لنداء دعوته الى الوحدانية .

وقد أستطاع الشعر في هذا الصدد أن يوضح قيمة الجهاد ويبين فضيلة المجاهدين ، ومكانتهم في الدنيا والآخرة ، وهو ما كان يحفز المسلمين على التغني بالجهاد ، والتمسك به نهجاً لمواصلة الكفاح ، وتحقيق النصر الذي وعدهم الله به.

فبرز شعر الجهاد في هذا العصر ، لوناً شعرياً متميزاً ، رسم صور نضال الانسان المسلم وقصة صبره وصلابة مبادئه ، وهو يتصدى لنوازع الشرك ومعاقل الطغيان . فقدّم شعراء هذا اللون صورة معبرة لنمط الشعر الجهادي الملتزم الذي أنصرف الى معالجة ما كان يتطلبه الموقف وتفرضه الظروف في ميدان المواجهة لأستنهاض الهمم وتأجيج مشاعر الحماسة والأندفاع . فصوّر مشاعر المجاهدين وأحاسيسهم وخفقات قلوبهم ، وهم يندفعون في حومات الوغى ، ويتسابقون في تأدية المهمات الموكلة اليهم ، بعد أن نذروا انفسهم جنوداً في مواكب الإسلام ، فرسم شعر الجهاد صورة الروح الجهادية التي تحلى بها المسلمون ، فلم يلتفتوا الى الدنيا وما فيها ، بل قدموا دماءهم وأبناءهم وأموالهم سخية ليفوزوا بحسن ثواب الآخرة ، التي وجدوا في الفوز بها طريق المجد وسبيل الخلود والسعادة الأبدية ، بعد أن ملأ نور الإيمان نفوسهم ، وبدد وهج العقيدة ظلمات صدورهم فأضاء جوانبها .

إنّ أنطلاق المجاهدين المسلمين قوافل هادرة تمتثل لأمر الله ، وتلبي نداء رسوله الكريم في نشر مبادئ الهداية والتوحيد كان الهاجس الوحيد الذي شغل مشاعر المسلمين وملأ حياتهم ، لاسيما بعد أن أعزهم الله بالإيمان ، وأنزاحت العتمة من عقولهم . وكانت المبادئ التي بشر بها الإسلام قد فتحت أذهانهم على أبواب المجد الذي ينتظرهم ونعيم الخلود الذي كفله الله تعالى لهم في جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين .

لقد كان أعتقادهم بأن سمو الواجب الذي خرجوا من أجل إحقاقه ، وقدسية المهمة التي أنيطت بهم قد جعلتهم لا يأبهون بالأخطار ، ولا يلتفتون الى الصعوبات التي كانت تعترض مسيرتهم ، بل كان شعورهم بحفظ الله ورعايته ، وهم يخوضون غمار المنازلة ويعتسفون ميدان المواجهة أنتصاراً لأمر الله

وإرادته. وكان الشعر في هذا الأتجاه أميناً وصادقاً في أستلهام النفحات الإيمانية الصادقة ، والومضات النورانية التي تغمر النفوس فتضيء جوانحها ثقة وأقتداراً . وكانت عبارات التوكل على الله والتسليم بعظيم قدرته في دعم المجاهدين هي الأصوات التي كانت تتصاعد في ثنايا أبيات الجهاد وشعره ، وترسم صورة الحياة الجديدة التي أنفتحت عليها نفس الإنسان المسلم .

فأبو أحمد بن جحش حين يستذكر هجرة قومه من بني أسد الى الله تعالى، والى رسوله الكريم ، يحاول من خلال محاورته لزوجه أم أحمد التي أبتدأ بها قصيدته البائية أن يوضح لها سمو المهمة التي خرجوا من أجلها ، وجعلها تسترضيه وتتوسل اليه لكي تثنيه عن هدفه الديني السامي ، ولكنه لم يتلفت الى تلك التوسلات ، ولم يقف حائراً أمام تلك التنهدات ، بل أجابها بروح مؤمنة ، وإرادة صادقة بأنه مصمم على الهجرة لأنه يمتثل لأمر الله وينفذ مشيئته ، ومن يكن مسعاه هذا فالله يحفظه ولا يمكن أن يخذله ، وقد عبر عن ذلك في قوله :

فقلت لها : بل يثرب اليوم وجهُنا ... وما يشأ الرحمنُ فالعبدُ يركبُ
الى الله وجهي والرسول ومن يُقم ... الى اللهِ يوماً وجهه لايُخَيّبُ(١٦)

ويؤكد عبد الله بن حذف إيمانه بحتمية انتصار المسلمين بعد أن فوضوا أمرهم الى الله تعالى ، وتوكلوا عليه ، وقد أشار الى ذلك في قوله :

توكلنا على الرحمن إنّا ... وجدنا النصر للمتوكلينا(١٧)

ويؤمن كعب بن مالك إيماناً مطلقاً بقدرة الله على أنزال نصره على المسلمين ، لأن الله قادر على ذلك ، وليست هناك قوة في الأرض تستطيع قهر إرادة الله ، ولهذا فهو لا ييئس وهو يتأمل حشود قريش ، ولا ينثني أمام ما أستنفروه من عناصر الشر والعدوان بل يواجه هذا الموقف بروح الإيمان والثقة

بحتمية انتصار إرادة الله[١٨] . لأنه حين ينازل أعداء الله ، ورموز الشرك فأنه ينازلهم وهو واثق من النصر لأن الله مؤيد المسلمين بقوته وعظيم إرادته[١٩] .

ولا يخفي عبد الله بن رواحة مشاعر الثقة والأطمئنان التي تملأ قلبه وكيانه وهو يواجه أعداء الله ، بل يبدأ حديثه بالدعوة الى الله الذي هو مصدر الهداية والتصديق ، ويرجوه رجاء المؤمن الصادق ان يمنّ على جموع المجاهدين بسكينته ، وأن يثبت أقدامهم عند أحتدام الخطب ، وقد أشار الى ذلك في قوله :

يارب لولا أنتَ ما اهتدينا
ولا تصدّقْنا ولا صلّينا
فأنزلنْ سكينةً علينا
وثبّت الأقدام إن لاقينا[٢٠]

ولا يجد مالك بن نويرة غير الله معيناً ولا ناصراً حين يعزّ النصير والرديف ، فيتوكل على الله ويسأله العون في الجهاد[٢١]. ولا تنسي نشوة النصر أبا مفزر الأسود بن قطبة ، وهو يشارك جموع المجاهدين فتح البهرسير بل يصرح بصوت واضح ، ينبض بروح الإيمان بأن ما تحقق للمسلمين من هذا الفتح العظيم لم يكن ليحصل إلا بإذن الله الذي أعزهم بنصره وفتحه المبين ، وقد عبر عن هذه الحقيقة في قوله :

فتحتُ البهرسير بإذن ربي وأعدتني على ذاك الأمور[٢٢]

ولم تكن صورة الحياة الهانئة ، والسعادة الغامرة التي أنفتحت عليها النفوس المؤمنة في ظل مبادئ الرسالة وتعاليمها السامية ، فباتوا يرون الأشياء بصورتها الحقيقية ، وحجمها الطبيعي ، فشعروا بقيمة أنفسهم ، وأحسوا بمقدار منزلتهم بعد أن أرتبطت حياتهم بمبدأ ، وأقترن وجودهم بعقيدة ، وملأت عليهم حياتهم ونفوسهم ، فلم يشعروا بهول المهمات التي نهضوا بها ، ولم يترددوا وهم ينفذون أصعب الواجبات التي كُلفوا بها ، بل كان إيمانهم بما قدّر الله لهم ، وثقتهم

بأن الله لا يمكن أن يخذلهم مهما أشتد الخطب ، أو عظُم ، هو الهاجس الذي ملأ عليهم حياتهم ووجودهم .

فقد أدرك كعب بن مالك هذه الحقيقة وعبر عنها يوم بدر ، حين خاطب جموع الشرك ورموزه ، ورسم لهم صورة الخيبة التي تنتظرهم من خلال أشارته الى الفارق بين منْ ينتصر لشرف المبادئ الخيرة الذي سيؤيده الله حتماً بنصره ، وبين من يتبع أهواء الشرك والضلالة ، فيما ليسا بمنزلة واحدة ، فقال :

ليسا سواءً وشتى بين أمرهما حزب الأله وأهلُ الشرك والنُّصب[٢٣]

وأكد كعب هذه الحقيقة التي أستقرت في وجدان جميع المسلمين حين لم ترهبه جموع المشركين يوم الخندق بل وجد أن التوكل على ربّ العباد ومجاهدة الأعداء هي التي ستحسم المنازلة لصالح جمع الإيمان[٢٤] .

وتتكرر صورة الأعتقاد والإيمان بتأييد الله للمسلمين في كل منازلة وموقعة وأعزازهم بنصره ، لأنهم يدافعون عن دين الله ومبادئه[٢٥] . فقد أكد العباس بن مرداس هذه الحقيقة يوم حنين حين أكد أن الله تعالى مؤيد المسلمين بنصره ، وهم لا يبتغون من ذلك سوى رضوان الله[٢٦] . ولا يبتئس عبد الله بن رواحة ، وهو يواجه حشود المشركين وجموعهم ، بل يقرر بروح مؤمنة ، وإيمان صادق بأنه غير آبه بذلك ما دام يدافع عن حق وينتصر لهدف سام ، لأنه يعلم علماً قاطعاً انه لابد أن ينتصر جمع الإيمان بعدما توضحت الصورة في نفوس المجاهدين ، وأنكشفت الحقيقة أمام ابصارهم[٢٧] . ولا يبتغي المسلمون من هذا الأندفاع الجهادي الرائع سوى فواضل ربّ كل عطاياه حسن وكل نوافله خيرة مقبولة[٢٨].

لقد كان داعي الجهاد قوياً في النفوس ، فلم يسمعوا غير صوت الحق ولم تثر أنتباههم أجلّ وأعظم من كلمات الله ، وهي تتردد منسابة قوية تهز الوجدان وتأسر الأفئدة . فهذا جندب بن عامر يودع الدنيا بمشاعر ودفقات وجدانية بقيت تحكي قصة الإيمان الذي ملك قلب هذا المؤمن ، فبذل مهجته ، وأستنفر قدراته

ليدافع عنْ الإسلام بكل ما أوتي من جهد وقوة ، وهو لا يبغي من كل ذلك سوى الفوز بجنات الخلد ، وفي ذلك يقول :

سأبذل مهجتي أبداً لأنّي ... أريدُ الفوز من ربّ كريم
وأضربُ في العِدا جهدي بسيفي ... وأقتل كلّ جبّارٍ لئيم
فأن الخلدَ في الجنّاتِ حقّ ... تباح لكل مِقدام سليمِ[٢٩]

ويستخف عروة بن زيد الخيل بالدنيا بعد أن ذاق حلاوة الجهاد ، وأدرك كنه حياة المجاهدين ، فهي حياة كريمة لا تعادلها حياة أخرى ، وأصبح غاية همه الجهاد ، فأخلص له النية وأعرض عن الدنيا وثرواتها ، ولم تعد تعني له شيئاً ، وقد أشار الى ذلك في قوله :

وقد أضحتِ الدنيا لديّ ذميمةً ... وسلّيتُ عنها النفس حتى شلّتِ
وأصبح همّي في الجهادِ ونيّتي ... فللّه نفسٌ أدبرتْ وتولّتِ
فلا ثروةُ الدنيا نريد اكتسابها ... الا أنّها عن وفرِها قد تَخلّتِ[٣٠]

لقد كان مبعث هذا الشعور في تنفيذ الواجب الجهادي بهذه الروح الصادقة مرده إيمان المجاهدين بقيمة المبادئ التي يجاهدون من أجل أحقاقها ، فضلاً عن توفر النموذج القيادي في ميدان الجهاد . فقد كان الرسول الكريم علماً بارزاً من أعلام الجهاد ، وقائداً متميزاً أبلى بلاءً مشهوداً في تأريخ الأمة ومسيرتها .

فلم يلتفت عبد الله بن رواحة الى جموع المشركين وكثرة حشودهم ، وهو يتأمل صورة الرسول الكريم وهو يتقدم الصفوف[٣١]. ويؤكد النابغة الجعدي انقياده المطلق لما جاء به الرسول الكريم ، وجهاده الصادق ، بفضل ما وجده في شخصية الرسول (ﷺ) من نموذج جهادي رائع فأنصاع لطاعته وسلم بقيادته[٣٢].

ولم يكن المجاهدون الأوائل ، وهم يلبون نداء الوحدانية ويمتثلون لأمر الله تعالى في نشر مبادئ العدل والتسامح يلتفتون الى من كانوا وراءهم من آباء وأمهات وأزواج وأبناء ، بل كان صوت الواجب الديني أعلى من أصوات

أستغاثاتهم ، وأكثر من توسلات ابنائهم . فلم يلتفت أبو أحمد بن جحش الى توسلات زوجه ورغبتها في عدم الهجرة الى يثرب ، وهو يحث الخطى على درب النور والإيمان مهاجراً ليلتحق بركب الرسول الكريم (ﷺ) ، بل كان داعي الجهاد أعظم وأقوى في نفسه ، وقد عبر عن هذا الشعور في قوله :

لما رأتني أم أحمد غاريا ... بذمّة من أخشى بغيب وأرهبُ
تقول : فإما كنتَ لابد فاعلا ... فيمِّم بنا البلدان ولتنْا يثرب
فقلت لها : بل يثرب اليوم وجهنا ... وما يشأ الرحمنُ فالعبدُ يركبُ
الى الله وجهي والرسول ومن يُقم ... إلى الله يوماً وجهه لا يُخيّبُ
فكم قد تركنا من حميمٍ مُناصِحٍ ... وناصحة تبكي بدمعٍ وتندُبُ(٣٣)

أن وضوح الغاية التي كان يقاتل من أجلها المجاهدون المسلمون ، وسمو المبادئ التي نذروا أنفسهم من أجل ترسيخها ، قد نوّرت أبصارهم ، وجعلتهم يسترخصون كل شيء من أجل أن تعلو راية الحق وتسمو . فكانوا يواجهون أقدارهم بروح ملؤها العزيمة والصبر دون أن تهزها المواقف العصيبة ، أو اللحظات الحاسمة ، بل كانوا يحسمون أي تردد يمكن أن يعتري النفس في مثل هذه اللحظات الحاسمة بالتذكير بحقيقة الخلق ومصير الإنسان وما سينتهي اليه لكي يجعلوا أنفسهم أصلب في المواجهة ، وأشد على تحمل الصعاب . فيذكر عبد الله ابن رواحة نفسه ، وهو يحمل على أعدائه في مؤته بأن مصيرها الموت ، والجهاد هو الميدان الذي يتمناه كل مؤمن صادق . فأن لبّت نداء الجهاد فقد أهتدت الى طريق الحق ، وأن تأخرت أو أحجمت فقد كُتب عليها الشقاء ، وفي ذلك يقول :

يا نفسُ إلا تُقْتلي تموتي
هذا حمامُ الموت قد صليتِ
وما تمنّيتِ فقد أعْطيتِ
إنْ تفْعَلي فِعْلَهُما هُديتِ
إن تسْلَمي اليوم فلن تفوتي
أو تُبتلي فطالما عُوفيتِ
وإن تأخرْتِ فقد سَقَيتِ(٣٤)

ويجسد النابغة الجعدي حبّ المجاهدين للتضحية بشكل آخر ، فخيلهم مدربة ومعودة إذا ما ألتقوا الا تحيد أو تنفر من المواجهة ، فيقول :

وإنا أناس لا نُعوّد خيلَنا إذا ما ألتقيْنا أن تحيدَ وتنفرا(٣٥)

أن انطلاق المجاهدين بهذه الروح الجهادية ، والأندفاع البطولي ، كان ينبع من أحساسهم وثقتهم المطلقة بأن الله سبحانه وتعالى يعينهم ويشد أزرهم في كل موقعة ومنازلة . وقد عبر الشعراء عن هذه الروح المؤمنة والثقة المطلقة بتأييد الله للمسلمين . فكعب بن مالك لا ييئس مما أعدته قريش وحلفاؤها من حشود وهيأته من إمكانيات النصر الذي لابد أن يتحقق بإرادة الله وعظيم قدرته ، حيث يقول :

إذا غايظونا في مقام أعاننا على غيظهم نصرٌ من الله واسع(٣٦)

ويؤكد كعب هذا الشعور في كل معركة يخوضها المسلمون ، فهم يشدون بحول الله وقوته(٣٧) . ولا يبالي عبد الله بن رواحة ببني مخزوم وحلفائهم ، بل يؤكد اقتدار المسلمين في المواجهة ، وأنه ليس هنالك غالب لإرادة الحق مهما عزّ الأعداء وكثروا ما داموا يسيرون بهدي الإسلام وقيادة الرسول الكريم(٣٨) . ويؤكد عبد الله بن رواحة فضل الله على المسلمين الذي لولاه لما أهتدوا وأصبحوا مسلمين ، فيطلب منه أن ينزل سكينة عليهم ، وأن يثبّت اقدامهم لينتصروا للمبادئ ويدحروا الكفر والضلال(٣٩) .

ويمضي العباس بن مرداس ومن معه من جحافل المجاهدين الى طريق الحق والجهاد ، وهم واثقون بأنهم يمضون وأرادة الله وقدرته تحفظهم وترعاهم ، وأن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً وجاهد في سبيل دينه ، فيقول :

نمضي ويحرسنا الإله بحفظه والله ليس بضائع من يحرس(٤٠)

ويصرح قيس بن مكشوح بروح ملؤها الإيمان الراسخ والعقيدة الصادقة بأن ما حققه ورفاقه المجاهدون من أنتصارات باهرة وملاحم رائعة في مناهضتهم الفرس في معركة القادسية لم يكن ليتحقق الا بفضل الله الذي أبلى مع المجاهدين بلاءً خيراً عزز من نصر المسلمين وأقتدارهم ، حيث أشار الى ذلك في قوله :

وقد أبلى الإله هناك خيراً وفعل الخير عند الله نام(٤١)

ولم تكن تغرب عن نفوس المجاهدين صورة الحياة السعيدة التي تحققت لهم بفضل إيمانهم وانخراطهم مجاهدين في صفوف الإيمان ، وما تحقق لهم ولقبائلهم من ألفة إنسانية وتكافل اجتماعي وتوحد قومي كفلتها مبادئ الرسالة الكريمة وتعاليم الإسلام العظيمة .

إن هذا الفهم الواعي والتفاعل الصميمي مع مبادئ الدين فتح عقول المجاهدين ، ونوّر أبصارهم بسمو الواجب المكلفين به ، فلم تغب عن أذهانهم صورة الحياة التي يدافعون من أجل أحقاق أسسها ، وفهم لا يتعصبون الا الى الله ورسوله دون أن تثيرهم أية صلة قرابة أخرى . فيسرع العباس بن مرداس وقومه من بني سليم لنصرة رسول الله فيضربون العدو ، ويطعنونه بأقتدار عقائدي ، لا يعرفون فيه معنى المهادنة حتى مع أقرب الناس اليهم ، ولا يبغون من ذلك كله سوى طاعة الله ورسوله ، فيقاتلون في صفوف المسلمين ، وقد عبر عن ذلك في قوله :

وبنو سليم معنقون أمامه ضرباً وطعناً في العدو دراكا
يمشون تحت لوائه وكأنهم أسد العرين أردن ثم عراكا
ما يرتجون من القريب قرابة الا لطاعة ربهم وهواكا
هذي مشاهدنا التي كانت لنا معروفةً ووليُّنا مَولاكا(٤٢)

لقد حفلت معظم المعارك التي خاضها المجاهدون الأوائل ، بأروع الانتصارات وأعظمها ، وسجلت جحافل الإيمان في تلك الصولات اندفاعاً بطولياً

رائعاً دللَ على شجاعة الإنسان المسلم وتفانيه في الذود عن العقيدة . وكـان فـي مقدمة الأسباب التي دفعت المجاهدين المسلمين الى تسجيل هذه الأنتصارات حبـهم المطلق للمبادئ وأستعدادهم العالي للتضحية دونها ، بعد أن شعروا بقيمة أنفسـهم وحياتهم في ظل مبادئ الإسلام السامية . فتسابقوا مخلصين لنيل شرف المسـاهمة في إنجاز هذا الواجب الديني المقدس لشعورهم بأن الجهاد هو عنوان فخر ورمـز مجد للأحياء منهم ، أما الشهداء منهم فهم في جنة الخلد التـي أعـدت للمتقيـن المجاهدين .

فقد سجل زيد الخيل فضل أبي بكر (ﷺ) ومجاهدته المرتدين الذيـن أرادوا شق وحدة الإسلام والنيل من عظمة إنجازاتـه بدعوتـهم الضالـة ، وأفكـارهم المنحرفة . فتصدى لهم الخليفة الراشد بكل معـاني الأقتـدار الجـهادي ، وروح الإيمان الصادق ، حتى أستطاع أن يكبح بوادر هذا التمرد الخطير فـي مسيرة الأمة ورسالتها ، فأعظم زيد الخيل هذا العمل الجهادي الرائع ، وسـجل فضـل الخليفة المجاهد ، وما حازه من مجد الحياة وخلودها بفعله الجهادي الجليل وعملـه البطولي الرائع ، فقال :

إمام أما تخشين بنت أبي نصـرٍ فقد قـام بالأمر الجلي أبو بكـر
نجيّ رسول الله في الغار وحده وصاحبهُ الصديق في معظم الأمرِ (٤٣)

وذكر خالد بن الوليد جموع المجاهدين في معارك الشام بما ينتظرهم مـن فوز ونصر ، إذا هم اندفعوا اندفاعاً سريعاً لدحر العدو ، ولم تغـب عـن ذهنـه صورة النعيم الخالد ، والجنان الوارفة التي أعدها الله تعـالى للمجـاهدين الذيـن يدافعون عن دينه ورسالته ، فقال :

هيـوا جميعاً – أخوتي – أرواحا
نحو العدو نبتغي الكِفاحـا
نرجو بذاك الفـوز والنجاحـا
إذا بَذلنـا دونـهِ أرواحـا
ويـرزق الله لنـا صلاحـا
في نصرنـا الغدوّ والرّواحـا (٤٤)

وفخر عمرو بن معد يكرب بما فعله قومه في معارك الإسلام الخالدة ، فسجّل ما فعلوه في معركة نهاوند التي اندحر فيها الفرس ، وأنهزموا شر هزيمة ، ولم يكونوا يطمعون سوى بطاعة الرحمن وحسن ثوابه(٤٥) .

أن إيمان المجاهدين بسمو الواجب الذي كلفهم الله تعالى به ، فضلاً عن اعتقادهم الراسخ بأن الموت حق مفروض عليهم جعلهم يسترخصون الارواح والمهج ، ولا يبالون بالخطب حتى وان كلفهم حياتهم . فلا يرى كعب بن مالك القتل في سبيل الله سبة ، بل يجده شرفا" غاليا" ينبغي ان يحرص المجاهد عليه . وحين يرثي عبد الله بن رواحة نافع بن بديل شهيد يوم بئر معونة لايذرف دموع الأسى والحزن لفراقه ، بل يطلب له الرحمة والرضوان التي وعد الله تعالى بها المجاهدين فقال :

رحم الله نافع بن بُدَيلٍ رحمة المبتغي ثواب الجهاد(٤٧)

ولم يلتفت سعد بن معاذ الى درعه القصيرة التي كان يرتديها ، وهو يهنب مسرعاً لقتال المشركين يوم الخندق ، بل أنطلق بثبات المجاهدين الشجعان الذين لا يرهبهم الموت ولا تفزعهم المنايا ، بل يواجهون أقدارهم بروح المجاهدين الأشداء الذين لا يجزعون إذا حان أجلهم ، فقال :

لبّثْ قليلاً يشهدِ الهيْجا حَمَلْ لا بأس بالموتِ إذا حانَ الأجلْ

وكانت مشاعر أمه لا تقل إيماناً عن مشاعر أبنها ، وهو يواجه قدره ، بل أمرته قائلة : (الحق : أي بني ، فقد والله أخرت)(٤٨) . فأنطلق هذا المجاهد المؤمن يقاتل قتال الشجعان حتى رزق الشهادة . وحيث ينطلق المؤمن بهذه الروح فأنه واثق ومؤمن بأنه أنما يحتسب عمله عند الله تعالى الذي عنده المدخر ، وقد أشار الى ذلك العباس بن مرداس في قوله :

ونحن يوم حنين كان مشهدنا للدين عزاً وعند الله مدخر(٤٩)

وأمام هذه الصورة الرائعة لقيمة الجهاد ، وشرفه في حياة المسلمين ، فقد أكد الشعراء صورة الخيبة التي مُني بها المشركون بعد أن ضلوا عن طريق الحق، وأبتعدوا عن طريق الهداية ، فباءوا بالخيبة والخذلان . فقد توعد عبد الله ابن رواحة رمز الشرك أبا سفيان وأنذره سوء العاقبة والخزي في الحياة ، وتوعده بما ينتظره من عذاب شديد في جهنم ، فقال :

فأبلغ أبا سفيان إما لقيته ... لئن أنت لم تُخلص سجوداً وتسلم
فأبشر بخزي في الحياة معجّل ... وسربال قارٍ خالداً في جهنمِ[٥٠]

وأنذر عبد الله بني النضير بالبعد والسحق جراء ما أقترفوه من تآمر وآثام بحق الرسول والمسلمين[٥١]. وذكر العباس بن مرداس ما حلّ ببني قارب بن الأسود يوم حنين من قتل وفرار ، وأوضح لهم بأن هدايتهم للإسلام ستجلعهم موضع إعزاز المسلمين وتقديرهم، وأنذرهم بالخيبة والخذلان أن لم يهتدوا، فقال:

قتلنا في الغبار بني حُطيْطٍ ... على راياتها والخيلُ زُوْرُ
فأفلت من نجا منهم جريضا ... وقُتّل منهم بشر كثيرُ
فأن يهدوا الى الإسلام يلفوا ... أنوف الناس ما سمر السمير
وأن لم يسلموا فهم آذان ... بحرب الله ليس لهم نصير[٥٢]

أن أرتباط القتال في الإسلام بهذه الغاية المقدسة ، جعل المجاهدين المسلمين مشاريع دائمة للعطاء والشهادة ، لا يبالون بالجهد أو التضحيات وكان زادهم في كل ذلك هو الصبر والثبات ، لاسيما أن القرآن الكريم قد أكد أهمية الصبر وقيمته في أحراز النصر ، يقول تعالى : **[يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فأثبتوا ، وأذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، وأطيعوا الله ورسوله ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وأصبروا إنّ الله مع الصابرين]**[٥٤] .

والصبر والثبات في المعركة من المستلزمات الأساسية للمجاهدين لأحراز النصر ، يقول تعالى في تأكيد قيمة الصبر والتمسك به .

[يا أيها الذين آمنوا أصبروا وصابروا ورابطوا وأتقوا الله لعلكم تفلحون][٥٥] ويقول تعالى أيضاً في تأكيد أقتدار الصابرين من المجاهدين وبيان صلابتهم المتميزة ببدر عندما أنتصروا على قلتهم وألحقوا الهزيمة بقريش وجموعها الضالة **[يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون]**[٥٦] .

إن إيمان المجاهدين المسلمين بقدسية رسالتهم وسمو المبادئ ، التي يحملونها جعلتهم مشاريع دائمة للشهادة ، بعد أن صرفوا اهتمامهم عن الدنيا ومباهجها ، وكان مسعاهم هو الفوز بمرضاة الله وحسن ثواب الآخرة .

وكان الرسول الكريم نموذجاً فريداً في أستشعار قيمة الصبر وأهميته في المنازلة ، ففي بدر وقف الرسول (ﷺ) محرّضاً المجاهدين وحاثهم على التمسك بالصبر ، فقال : (والذي نفسي محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر ، الا أدخله الله الجنة)[٥٧] . وقد جسد الرسول الكريم هذا السلوك الجهادي الرفيع ، وهو يقود جموع المجاهدين من نصر الى نصر بصلابته وحنكته وقوة صبره ، والتي أشار اليها كعب بن مالك في قوله :

رئيسهم النبيُ وكان صُلباً نقي القلب مُصطبراً عزوفا[٥٨]

وصور كعب أيضاً شجاعة المجاهدين المسلمين في بدر ، ورسوخ إيمانهم وصدق عقيدتهم وقوة صبرهم ، وقد اشار الى ذلك في قوله :

فلما لقيناهم وكل مجاهد لأصحابه مستبسل النفس صابر[٥٩]

ويبقى صبر خبيب بن عدي عندما أسره نفر من المشركين ، وهو يؤدي واجبه المقدس في نشر تعاليم الرسالة المحمدية ، مثالاً رائعاً ونموذجاً رفيعاً في

الصبر على البلوى . فعندما قُدّم للصلب ، لم يضطرب ولم يرتعد ولكنه أستعان بالصبر في مجابهة الموت فقال :

فذا العرشِ صبّرني على ما يُرادُ بي فقد بضّعوا لحمي وقد ياس مطمعي(٦٠)

ولم يجد حسان بن ثابت أفضل من الصبر وسيلة يلوذ بها ، ليخفف عزاءه، فكان أستشهاد خبيب مكرمة ، وأن الله تعالى سيدخله جنات النعيم ، فقال :

صبْراً خبيبُ فإن القتلَ مكرمةٌ الى جنات نعيمٍ يرجعُ النفَّسُ(٦١)

وعندما أزف موعد دخول المسلمين الى مكة في العام الثامن للهجرة، وقف حسان بن ثابت بقوة العقيدة التي تملأ كيانه يرسم قدرة الرجال الأشداء ، وهم يتأهبون لدخول مكة بثقة وأقتدار ، وهم متسلحين بالصبر سلاحاً فقال :

والا فأصبروا لجلادِ يومٍ يعزُّ الله فيه من يشاءُ(٦٢)

وحين عبر زياد بن حنظلة عن خور المرتدين وانهزامهم أمام جنود الإيمان أتخذ من صورة عدم صبرهم في المعركة مدخلاً ليوجه اليهم سهام هجائه ، فقال :

فما صَبَروا للحربِ عند قيامها صبيحة يسمو بالرجال أبو بكرِ(٦٣)

ويصف كعب بن معدان الأشقري شجاعة فرسان العرب ، وصلابتهم وقوة صبرهم في مواجهة خصومهم على الرغم مما يتمتعون به من قوة ، فقال :

بفتيةٍ كأسودِ الغابِ لم يجدوا غير التأسي وغير الصبر مُعتصما(٦٤)

إن هذه المواقف الخالدة، وغيرها من المواقف الأخرى التي يزخر بها تراثنا العربي تؤكد قيمة الجهاد والصبر في حسم أي منازلة لصالح صف المؤمنين المجاهدين الذين لا يجزعون ولا يترددون مهما تكالب الأعداء ، وازدادت حشودهم لإيمانهم بأن النصر لا يمكن أن يكون الا بالجهاد والثبات والصبر والإيمان.

المصـــادر و المراجـــع

- القــرآن الكريــم
- الأخبار الطوال + الدنيوري : أبو حنيفة أحمد بن داود (٢٨٢) هـ ، تحقيق: عبد المنعم عامر ، دار أحياء الكتب العربية القاهرة . ط١ – ١٩٦٠م .
- تأريخ الرسل والملوك + الطبري : أبو جعفر محمد بن جرير (٣١٠) هـ ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، مطـــابع دار المعـــارف مصـــر ، ط٢ ، ١٩٦٨-١٩٧١م .
- دراسات في الأدب الاسلامي – د. سامي مكي العاني ، مطبعة المعـــارف ، بغداد ، ١٩٦٨م .
- ديوان حسان بن ثابت – تحقيق سيد حنفي حسنين ، الهيئة المصرية العامـــة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٤م .
- ديوان زيد الخيل الطائي – صنعة د. نوري حمودي القيسي ، مطبعة النعمان – النجف الأشرف ، ١٩٦٨ م .
- ديوان العباس بن مرداس السُلمـــي ، تحقيق الدكتور يحيى الجبـــوري – دار الجمهورية ، بغداد ١٩٦٨ م .
- ديوان عبد الله بن رواحة الأنصاري ، دراسة وجمع وتحقيق الدكتور حســـن محمد باجودة ، مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٧٢م .
- ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، صنعـــة هاشـــم الطعـــان ، مطبعـــة الجمهورية ، بغداد – ١٩٧٠م .
- ديوان كعب بن مالك الأنصاري ، دراسة وتحقيق د. سامي مكي العـــاني ، مطبعة المعارف – بغداد ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٦ م .
- السيرة النبوية + ابن هشام : ابو محمد عبد الملك بن هشام (٢١٨) هـــــ ، تحقيق مصطفى السقا ، وأبراهيم الأياري وعبد الحفيـــظ شـــلبي ، مطبعـــة مصطفى الحلبي ، طبعة مصورة بالأوفسيت .
- شعر الحرب عند العرب – د. نوري حمودي القيسي ، دار الحرية للطباعة، بغداد ، ١٩٨١م .

- شعر عبدة بن الطيب – د. يحيى الجبوري ، دار التربية للطباعة والنشر ، ١٩٧٢م .
- شعر النابغة الجعدي – عبد العزيز رباح ، منشورات المكتب الإسلامي – دمشق ، ط١ – ١٩٦٤ م .
- شعراء اسلاميون – د. نوري حمودي القيسي – عالم الكتب – بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٤ م .
- شعراء أمويون – د. نوري حمودي القيسي – مطابع مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر – الموصل ١٩٧٦ م .
- صحيح البخاري – ابو عبد الله محمد بن اسماعيل (٢٥٦) هـ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت (د.ت) .
- فتوح الشام – الواقدي (٢٠٧) هـ ، مطبعة مصطفى محمد ، ١٣٥٤ هـ ، مصر ١٣٠٢ هـ .
- فتوح البلدان + البلاذري : أبو العباس احمد بن يحيى بن جابر (٢٧٩) هـ ، تحقيق ، د. صلاح الدين المنجد ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٥٦م .
- الفروسية في الشعر الجاهلي – د. نوري حمودي القيسي ، مطابع دار التضامن ، بغداد – ط١ / ١٩٦٤ م .
- مالك ومتمم ابنا نويره اليربوعي – د. ابتسام مرهون الصفار ، مطبعة الأرشاد – بغداد ١٩٦٨ م .
- المختصر في أخبار البشر + ابو الفدا : عماد الدين بن اسماعيل بن علي (٧٣٢) هـ ، المطبعة الحسينية ، مصر ١٩٠٧ م .
- مدخل الى قصيدة الحرب – د. محمود عبد الله الجادر ، مجلة آفاق عربية ، العدد الثامن ، السنة السابعة – نيسان ١٩٨٢ م .
- مقدمة ابن خلدون – عبد الرحمن بن خلدون (٨٠٨) هـ ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة (د.ت) .